نحو نظرية عربيّة للناقد الجزائري عبد الملك مرتاض

HACIA UNA TEORÍA ÁRABE DEL CRÍTICO ARGELINO ʻABD AL-MALIK MURTĀḌ

نورالدين دريم
جامعة الشلف
Nouredine Drim
Universidad de Chlef

Resumen

La escritura literaria argelina en sus diversas formas (novela, historia, crítica…) experimentó a lo largo del siglo xx una actividad sin precedentes. Abdelmalek Murtad fue figura esencial para dar forma a la crítica literaria argelina, ya que buscó en sus escritos combinar la herencia árabe con las nuevas teorías occidentales. Y, al establecer puentes metodológicos, entre lo que escribían los críticos culturales árabes y lo que producían las escuelas modernas occidentales, asentó unas bases epistemológicas para la crítica árabe actual. Presentamos una serie de ideas de su teoría crítica a la luz de sus escritos, describiendo y analizando pasajes de su producción textual.

Palabras clave: Abdelmalek Murtad, crítica literaria, teoría árabe.

Abstract

Algerian literary writing in its various forms (novels, history, criticism, etc.) experienced unprecedented activity throughout the 20th century. Abdelmalek Murtad was an essential figure in shaping Algerian literary criticism, as he sought in his writings to combine the Arab heritage with new Western theories. And by establishing methodological bridges between what Arab cultural critics wrote and what modern Western schools produced, he laid an epistemological foundation for contemporary Arab criticism. We present a number of ideas from his critical theory in the light of his writings, describing and analysing passages from his textual production.

Keywords: Abdelmalek Murtad, literary criticism, Arabic theory.

ملخص

عرفت الكتابة الأدبية الجزائرية بمختلف أشكالها (الرواية، القصة، النقد . . .) في القرن العشرين نشاطا غير مسبوق، وقد برز في مجال النقد ناقد جزائري هو عبد الملك مرتاض، إذ سعى في كتاباته النقدية، أن يجمع بين الأصيل العربي، والحديث الغربي، وذلك من خلال مدّ الجسور المعرفية بين

ما كتبه النقاد العرب التراثيون، وبين ما أفرزته المدارس النقدية الغربية، من أجل أن يحاول التأسيس لنظرية نقدية عربية، سنعرض في هذه الدراسة إلى تلك الآراء التي استنبطها الناقد من قراءاته الفاحصة لما كتب في هذا الشأن، بالوصف والتحليل.
الكلمات المفتاحية: عبد الملك مرتاض، نقد، نظرية عربيّة.

مقدمة:

شهدت الحركة الأدبية في القرن الماضي (القرن العشرين) وبدايات القرن الذي يليه بالجزائر نشاطا غير مسبوق، إن على مستوى الكتابة الإبداعية (الرواية، القصة. . .)، أو النقد، هذا الذي حمل لواءه في الجزائر الناقد المبدع الدكتور عبد الملك مرتاض، إذ لا يذكر النقد في الجزائر إلاّ مقرونا باسمه، فتجده منظّرا تارة ومطبقا لإجراءاته تارة أخرى، مزاوجا في ذلك بين معطيات التراث العربي الأصيل، ومستجدات الغربي الحديث(المناهج النقدية)، جاء في إحدى مقولاته، ما نصه « منذ كان الإبداع، كان الرأي حوله، ومنذ كان الإبداع الشعري خصوصا كان النقد له، أي منذ كان فنّ القول، أو العمل الفني باللغة التي تستحيل إلى بناء أسلوبيّ معين، كان حولها اللغة الواصفة، أو لغة اللغة »[1].

هي عبارة مقتطفة من كتاب هذا الناقد الجزائري المتميّز، الذي اختار لكتابه اسما يعكس مضمونه، فكان « **في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها** »، الذي جمع فيه جهود سنين معتبرة في مجال النقد النظري والتطبيقي معا، فجاء هذا الكتاب حاملا لمجموعة من الآراء النقدية، التي يمكن أن نؤسس –في نظري– من خلالها لنظرية نقدية عربية، في ظل هيمنة المناهج النقدية الغربية على الدراسات التطبيقية للنصوص العربية.

حاول الناقد عبد الملك مرتاض في كتابه هذا، أن يجمع بين الأصيل العربي والحديث الغربي، وذلك من خلال مدّ الجسور المعرفية، بين ما كتبه النقاد العرب التراثيون، وبين ما أفرزته المدارس النقدية الغربية، فأبدع فيه أيّما إبداع، يتجلى ذلك من خلال الآراء النقدية التي استنبطها من خلال قراءاتها الفاحصة للتراث النقدي النظري والتطبيقي، ومناقشة الآراء النقدية الغربية من خلال مناهجها المختلفة.

1 مرتاض عبد الملك، في نظرية النقد (رصد لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، الجزائر، دار هومة، 2002، ص49.

تحاول هذه الدراسة أن تسبر أغوار ما كتب هذا الناقد في هذا الشأن، للخروج بمجموعة الآراء النقدية التي تصلح – في نظري – أن تكون بدايات تأسيسية لنظرية نقدية عربية.

1- مفهوم النظرية، وموضوعها، وشروطها:

تتنازع مصطلح النظرية حقول معرفية كثيرة ومتنوعة سواء كانت علمية أو فكرية أو فلسفية أو أدبية، أو نقدية أو غيرها، وهي «عملية تصورات مؤلفة تأليفا عقليا يهدف إلى ربط النتائج بالمقدمات وهي بمثابة فرض علمي يمثل الحالة الراهنة للعلم، ويشير إلى النتيجة التي تنتهي عندها جهود العلماء أجمعين في حقبة معينة من الزمن، ويربط عدة قوانين بعضها ببعض، ويرد إلى مبدأ واحد يمكن أن يستنبط منه حتما أحكاما وقواعد»[2].

أمّا إذا ربطنا النظرية بتصوراتنا لظاهرة معينة فإنّ « النظرية هي الفرضية المحققة بعدما جرى إخضاعها لرقابة المحكمة العقلية والفقه الاختياري . . . لكن على أية نظرية لكي تظل صالحة أن تتطور دائما مع تقدم العلوم، وأن تبقى خاضعة باستمرار للتحقق، ولنقد الوقائع الجديدة التي تظهر، وإذا اعتبرت نظرية ما على أنها كاملة، وجرى التوقف عن التحقق فيها بالاختيار العلمي أصبحت مذهبا »[3]؛ أي بمعنى: هي مرجعية تتحكم في تصوراتنا لظاهرة معينة.

وهي في سياق دراسة الظواهر الأدبية أو اللغوية أو العلمية جملة من « الفروض الذهنية أو العقلية التي يقدمها العلماء في استنباطهم للأنظمة التي يدرسونها »[4].

وإذا تمّ تحقيق ربط ما بين المنهج والنظرية في سياق ما، فإنّ النظرية في هذا المستوى هي « التي تشد الوقائع والمفهومات والفروض والقوانين في سياق ملتئم واحد بل إن وجودها متضمن بصورة أو بأخرى في كلّ منها، وبها يقدر دور كل من الوقائع والمفهومات والقوانين في تحقيق غايات المنهج العلمي، كما أن الحكم على كفاءة المنهج إنما هو حكم على كفاءة الطريقة التي أسلمت إلى النظرية »[5].

---

2 عبد الله محمد فتحي، معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم، مصر، دار الوفاء، ط1، 2003، ص 327.

3 أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد، بيروت، منشورات عويدات، ط 2، 2001، ج 3، ص 1455.

4 الدايم محمد عبد العزيز، النظرية اللغوية في التراث العربي، القاهرة، دار السلام، ط 1، 2006، ص17.

5 صلاح قنصوة، فلسفة العلم، القاهرة، دار قباء، 1998، ص 95.

أمّا عن موضوع النظرية، فيحدد كل علم من العلوم بشكل منهجي، حتى يتبين للباحث إخراج ما ليس فيه وحصر ما هو له، ويتم ذلك بوسيلتين اثنتين، أولهما: الممارسة الضمنية: وفيها يحصر موضوع كل علم، مع القدرة على استنباط مكونات الموضوع. وثانيهما: الممارسة المنهجية: وهي امتداد للأولى، ليجعل فيها الموضوع المحدد سلفا، بمثابة مقدمات نظرية يستعين بها الباحث على الخوض في غمار الموضوع المحدد وتطبيقاته.

وعليه إذن لا بدّ من ضبط قواعد تحديد الموضوع ومفاهيمه، فيعيد النظر في الموضوع دون إدخال ما ليس فيه فيحل به، أو يتجاوز به الحدود.

لكي تتأسس نظرية ما في حقل معرفي ما؛ لا بدّ أن تتوفر فيها جملة من **الشروط** وهي: «العموم والتجريد والاكتمال والبساطة، والاقتصاد والاتساق العام والكفاية في وصف اللغات وصلاحيتها للتطبيق على أكبر قطاع من اللغات»[6]. وكلّ شرط من هذه الشروط يتفاوت من لغة إلى أخرى باعتبار اختلاف اللغات في بعض الخصائص واشتراكها في الأخرى.

2- الناقد عبد الملك مرتاض[7]:

من مواليد 10 أكتوبر 1935م، بولاية تلمسان (تقع في الجهة الغربية من دولة الجزائري)، حفظ القرآن الكريم في سنّ مبكرة، في كتّاب والده، اطّلع على فنون كثيرة كالنحو والفقه والأدب، سافر إلى فرنسا سنة 1953م، بحثا عن العمل ليسد رمق عيشه خاصة وأن المستدمر الفرنسي قد عاث فسادا في دولة الجزائر، ولم يلبث طويلا حتّى عاد إلى الجزائر في سنة 1954م، ثمّ التحق بعدها بمعهد الإمام عبد الحميد بن باديس بقسنطينة، وبعد مدّة عين رئيسا لدائرة اللغة العربيّة، فرئيسا للمعهد في سنة 1974م، نال شهادة الدكتوراه في الآداب سنة 1983م، من جامعة السوربون بفرنسا، درّس بجامعة وهران (تقع غرب الجزائر)، سنين طويلة ولا يزال، تقلّد الكثير من المناصب الإدارية في الهيئات العلمية، منها: رئيس فرع اتحاد الكتاب الجزائريين في سنة 1975م، ونائب مدير جامعة وهران سنة 1980م، ومدير الثقافة والإعلام بمدينة وهران سنة 1983م، ورئيس المجلس الأعلى للغة العربية في سنة 1998م، ساعده السفر

6 الدايم محمد عبد العزيز، النظرية اللغوية في التراث العربي، ص 22.

7 ينظر سيرته المفصلة في: الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، الجزائر، رابطة إبداع الثقافية، 2002، ص129.

إلى فرنسا على الاطلاع على الآداب الفرنسية وما كتبه أبرز علمائها في عصور سابقة وفي عصره، ممّا كان السبب في تضافر ثقافتين لديه، أولهما ثقافة المنشأ وهي عربية، وثانيها ثقافة المهجر والغربة وهي الثقافة الفرنسية، ممّا ساعده على أن يكون أديبا وناقدا جزائريا متميّزا، تشهد له بذلك مؤلفاته الكثيرة التي ناهزت الثمانين مرجعا أو تفوق، في مجالات متنوعة: في اللغة والأدب والنقد والشعر والرواية والبلاغة والقصة وغيرها كثير، لا يزال الرجل معطاء، ومعينا علميا لا ينضب.

3- آراء نقدية قد تضفي إلى بدايات تأسيسية لنظرية نقدية عربية:

إنّ الفكرة التي انطلق منها الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض، هي إعادة قراءة التراث النقدي العربي بآليات حداثية، دون المساس بأصالة النقد العربي القديم، ومعنى ذلك أنّه حاول أن يؤسس لنقد عربي خالص من التبعية للمدارس النقدية الغربية، بحيث فحص التراث النقدي العربي، وخلص إلى نتيجة مفادها أنّ النقاد العرب جديرون بتأسيس نظرية نقدية عربية، كما اطّلع على المناهج الغربية ونقدها نقدا علميا مؤسسا، واستنتج قصور هذه المناهج في معالجة الظاهرة الأدبية، ودليل ذلك أنّه دعا إلى ما يسمى بالمنهج المتكامل في دراسة الظواهر الإبداعية، يقول « وانطلاقا من حتمية انعدام الكمال في أي منهج، فإننا لا نستنيم من حيث المبدأ إلى أي منهج إذا، ونجتهد أثناء الممارسة التطبيقية، أن نضيف ما استطعنا إضافته من أصالة الرؤية لمنح العمل الأدبي الذي ننجزه شيئا من الشرعية الإبداعية، وشيئا من الدفء الذاتي معا »[8]، وقد تفحصنا ما كتب، وخاصة كتابه « في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها) » ووقفنا على بعض الآراء النقدية، التي تصلح في نظرنا أن يؤسس من خلالها لنظرية نقدية عربيّة، وهي على النحو الآتي:

- الرأي الأول: إدراك مفاهيم المصطلحات الأربعة (القراءة، الكتابة، النقد، المستحيل) حقّ الإدراك.

أورد عبد الملك مرتاض هذه المصطلحات في مفتتح كتابه، جازما بأنّ هناك تعالقا وثيقا بينها، وأنّ إدراك مفاهيمها قد يفضي بصاحبه إلى التمكن من الإلمام بقضايا الأدب والنقد، موظّفا مقالة أن المصطلحات مفاتيح العلوم، ولكلّ علم مصطلحاته التي تعبّر عن المفاهيم التي يقتضيها مهما كان نوعه، فالعناية « بالمصطلح هي الطريق إلى

8 مرتاض عبد الملك، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، الجزائر، دار الكتاب العربي، 2001، ص19.

جعل اللغة لغة البحث العلمي، تقوم بأدوارها كاملة في مجالات المعرفة والإبداع »[9]، والنقد أحد مجالات الإبداع –على نحو ما، كما سيأتي بيانه–، فكان لا بدّ « لكل حقل من الحقول المعرفيّة أن يصطنع مصطلحاته الخالصة له، الموقوفة عليه »[10].

وقد لمسنا هذا التصور المنطقي عند علمائنا قديما، والذي من خلاله تمكنوا من إدراك حقائق العلوم وفهم ما يدور حولها وفيها، يقول الآمدي (ت 621هـ) في هذا الشأن : « حقّ على كل من حاول تحصيل علم من العلوم أن يتصور معناه أولا بالحد أو الرسم؛ ليكون على بصيرة فيما يطلبه، وأن يعرف موضوعه، وما هي الغاية المقصودة من تحصيله حتى لا يكون سعيه عبثا، وما عنه البحث فيه من الأحوال التي هي مسائله لتصور طلبها، وما منه استمداده لصحة إسناده عند روم تحقيقه إليه، وأن يتصور مباديه التي لا بدّ من سبق معرفتها فيه لإمكان البناء عليها »[11].

فقضية ضبط مفهوم المصطلح مهمّة جدّا، إذ لا يحصل فهم العلوم ولا سبيل لإدراك معارفها إلاّ بها، فمن هنا يكون عبد الملك مرتاض مصيبا في ما بدأ به كتابه، لأن ما هو آت منه ينبني عليه، وفي ما يلي مفاهيم هذه المصطلحات (القراءة، الكتابة، النقد، المستحيل)، من منظوره :

القراءة : مصطلح نقدي، يعنى بفك شيفرات النص وإعادة صياغته للتمكن من فهمه، مع مراعاة ثلاثة جوانب (لغة النص، فكرته، جماليته)، أمّا عند عبد الملك مرتاض فهو يرى بأنّ القراءة ما هي إلاّ كتابة أو ضرب منها، يقول « القراءة في تمثّلنا كتابة، أو ضرب من الكتابة على الأقل، فكأن الكتابة والقراءة وجهان اثنان لعملة واحدة، ذلك بأنّ الكتابة، في بعض حقيقتها، ليست إلاّ قراءة أيضا، فكأن القراءة مفتاح المعرفة الأول، فأن تكتب فإنّما أنت تعبر عمّا تقرأ في ضميرك، وتترجم عمّا في جنانك، وتحوّل حمولة القريحة غير المرئية إلى مشحونات من السمات مرقونة في شكل أسطار ممتدة على قرطاس »[12]، أي إنّ أي كاتب لا يكتب من العدم، فلا بدّ له من معرفة سابقة، وهي مخزون ذاكرته الذي يتنامى تبعا للقراءة المتكررة والمستمرة في أي مجال من المجالات.

الكتابة : قبل أن يحدّد عبد الملك مرتاض مفهوما للكتابة رأى بأنّ الكتابة والقراءة

---

9 دويدري رجاء وحيد، المصطلح العلمي في اللغة العربيّة، دمشق، دار الفكر، ط1، 2010، ص09.

10 مرتاض عبد الملك، نظرية النص الأدبي، الجزائر، دار هومة، ط2، 2010، ص21.

11 الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ت : سيد الجميلي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، 1998، ج1، ص 21.

12 مرتاض عبد الملك، في نظرية النقد، ص05.

هما المجال الأول للنشاط النقدي على مستوى التنظير والتطبيق، ثمّ طرح جملة من التساؤلات حولها، منها ما تعلّق بمفهومها ودوافعها، ومنها ما تعلّق بموطنها (على مستوى الذهن)، وهل هي موجودة فعلا[13]، . . . ثمّ انتقل لصياغة مفهوم لها، يقول « الكتابة وجود قوامه رسوم سوداء، متفق على نظامها، وكيفية استعمالها، تمثّل سمات لفظية، متفقا عليها أيضا، بين مجموعة لغوية معيّنة . . . كلّ هذا بسيط ومألوف ومعروف . . . لكنّ اللغز المحيّر الذي قد يظلّ قائما في سرّ وجود الكتابة هو كيف يكتب أناس دون آخرين، ولمَ يتفاضل الناس في الكتابة، فيعلو المستوى الفني لبعضهم على بعض، مع أنّهم في الأصل يعتزون إلى ثقافة واحدة ولغة واحدة، وحضارة واحدة . . . فربما كانت الكتابة شيئا آخر، متفرد الماهية، متوحّد الخصوصية، ولكنّ هذا الشيء لن يكون آخر الأمر إلاّ كتابة، كتابة وكفى، والكتابة وجودها ماثل فيها وكيانها قائم في لغتها، وحقيقتها، أوّلا وأخيرا، كامنة فيها، فكونها كتابة فهي الحقيقة لكن في دائرة ما يمنحه معنى الكتابة، ما تجود به على مراودها »[14]، يحاول الكاتب في ذلك أن يتخيّر الألفاظ، وأن يتلمس الأفكار التماسا، وأن يتصيد المعنى، فيصيب في ذلك الهدف، ويأبى عنده ذلك فيحيد عن الهدف في أحيان أخر.

النقد : يرى عبد الملك مرتاض أنّ ماهية القراءة تتولّد عنها أشكال أدبية أخرى، منها : القراءة الاستهلاكية : وهي قراءة الغرض منها الاستمتاع بنصوص الأدب المختلفة، وإن لم ينتج هذا النوع كتابة فإنّها تبقى مختزنة في الذهن، وأخرى اصطلح عليها : بالقراءة الاحترافية : وهي القراءة المركبة المعقّدة التي تنهض على جملة من الإجراءات التجريبية والاستطلاعية والاستنتاجية جميعا، وتسمّى القراءة المنتجة التي يتولّد عنها نص أدبيّ مكتوب، أي نص مقروء يولّد نصا مكتوبا، وكان يطلق على هذه القراءة، من بعض الوجوه، مصطلح النقد[15]، أي إنّ النقد يتأتى بعد الكتابة، وهو نوع من الكتابة تتضمن نوعا من التعليق على الكتابة الأولى، وتناقش أفكارها، ولكن تبقى خاضعة لجوانب مختلفة كالانتماء الفكرية والإيديولوجية التي يرتكز عليها الكاتب حين يريد أن يكتب.

النقد من منظور عبد الملك مرتاض إبداع، ولكن لا يرقى إلى الإبداع الذي يمثل في الأجناس الأدبية مثل : الرواية، والشعر، والقصة . . . وغيرها، يقول « والحقّ أنّ النقد

13 ينظر مجموع هذه التساؤلات في كتابه، في نظرية النقد، ص6.
14 المرجع نفسه، ص06.
15 ينظر: المرجع نفسه، ص13.

الأدبي، على تسليمنا بماهيته الإبداعية، في مظاهر منه على الأقل، لا يستطيع أن يكون إبداعا مماثلا لصنوه الذي هو الإبداع »[16]، وذلك للأسباب الآتية[17]:

– اختلاف منطلق كلّ واحد منهما.

– اختلاف الحاصل بينهما على مستوى المفهوم والجمالية. فالإبداع الأول هو كتابة أدبية تنهض على الخيال الخالص، ويجب أن يتّسم نتيجة ذلك بالسمات الجمالية والإنشائية والشعرية الرفيعة، أمّا الإبداع الآخر إنما ينهض على كاهل الإبداع الأول، ولّما كان على هذا النحو، فقد عسر عليه أن يحمل كلّ سماته الجمالية والشعرية.

بناء على ما تقدّم تظل إبداعية النقد نسبية جدّا، ويجب أن ينضاف النقد إلى الإبداع، من خلال تناول الإبداع، لا أن يكون إبداعا خالصا في نفسه[18]. فالنقد يفتقر إلى وجود نص يتخذ منه حقلا ورافدا من روافد الكتابة، في حين الإبداع سيد نفسه، وعماد ذاته ولا يفتقر إلى نص آخر.

المستحيل: ضرب من الكتابة، أشار إليه عبد الملك مرتاض في كتابه، يقول متحدثا عن ذلك « بل هلاّ كان المستحيل هو أيضا كتابة؟ فلا تزال الكتابة تسعى إلى البحث عن الهوية، فهل بوسعها تحقيق ذلك، أو شيئا من ذلك على الأقل؟ ولا تزال تتطلّع إلى تحقيق المستحيل فهل صفتها المستحيلة يمكن أن تفضي بها إلى تحقيق هذا المستحيل »[19]، فلماذا وسم عبد الملك مرتاض الكتابة بهذا الوصف، والسبب يعود —في اعتقادي— إلى أنّ الكتابة وسيلة لكلّ غاية، سواء كانت إبداعا أو دون ذلك، فتصف الأحوال الداخلية والخارجية وأنت تشاهدها أو تحسها، وتتحدث عن الخير وتفعله وتصف الشر ولا تفعله، أو تعبّر عن حال عشتها أو تخيّلتها، أو عن ممكن فتجعله مستحيلا، أو عن مستحيل وتجعله ممكنا، فلمّا تشعّبت الكتابة على هذا النحو كانت ضربا من المستحيل في نظره، فتبنّى ذلك بقوله « إنّ الكتابة التي تنهض على سحر اللغة التي تقوم على شرود المعاني التي تنهض على البحث عن الحقيقة، التي تسرح في المجهول السحيق الذي يعوم في العدم والفناء ليست لدى نهاية الأمر، إلا ممارسة لمستحيل، والتماسا لمجهول، وتكريسا لعدم »[20].

إذن لم يكن النقد إلا لمعالجة الكتابة وتناول جماليتها، وإن كانت ضربا من

16 المرجع السابق، ص15.
17 ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
18 ينظر: المرجع نفسه، ص18.
19 ينظر: المرجع نفسه، ص12.
20 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المستحيل، وكلاهما إبداع له خصوصيته ومميزاته، أمّا القراءة فهي سبيل لتوليد النقد في مرحلة تالية للكتابة. والكتابة أدب قوامه الخيال، والنقد كتابة قوامها المعرفة على حدّ تعبير عبد الملك مرتاض.

- الرأي الثاني: إعادة الاعتبار والتقدير إلى النقد العربي:

يرى عبد الملك مرتاض ضرورة العودة إلى التراث النقدي العربي والتعمق فيه، وفحص مكنوناته، خاصة وأن الغرب قد اعترفوا بقيمة هذا التراث النقدي الذي ورثناه عن أجدادنا النقّاد، في حين أنّ النقاد العرب اليوم لا يكادون يعترفون به، فهم « يعتقدون أن أجدادهم العرب لم يكونوا على شيء، ولم يكن لهم إسهام حقيقيّ في وضع أصول النقد الأدبي المنهجي وترسيخ أسسه »[21]، كما يؤكد عبد الملك مرتاض على حقيقة مفادها أن الأدب العربي سابق للأدب الغربي في معالجة بعض القضايا النقدية، يقول « ولكنّ الذي أودّ قوله للذين يرفضون عبقرية العرب، من العرب أنفسهم، أنّ هذه حقيقة تاريخية ولا يمكن لأحد إنكارها، فقد سبق الأدب العربي الأدب الغربي إلى تناول كثير من القضايا، ومنها النقد البنوي، ومسألة اللفظ والمعنى، كما تعترف بذلك الموسوعة العالمية نفسها »[22]، وما يؤكد كلام عبد الملك مرتاض، ما قام به ابن سلام الجمحي حين وضع أسسا مبدئية للنقد، تنهض خصوصا على: الزمان، والمكان، والتفرديّة، ويشترط أن تتوفر في الناقد جملة من الشروط، وهي التجربة: ويقصد بها **الخبرة** التي يكتسبها الناقد من خلال ممارسته التطبيقية في نقد النصوص، **والقدرة** على تمييز النصوص: وإن كنّا لا حاجة لنا بها اليوم، لشيوع الكتابة، وذيوع الطباعة، ولكنّ ذلك كان مهمّا جدّا في زمن الجمحي، **وتمكّن الناقد** وقدرته على التفسير والتعليل، وكتابه طبقات فحول الشعراء خير دليل[23].

ثمّ يأتي بعده ابن قتيبة، الذي وسم عبد الملك مرتاض نقده « بشكلانية ابن قتيبة « ، من حيث كان ابن قتيبة يرفض عامل الزمن أو مبدأ السبق التاريخي لتطور الأدب، وأن جودة الأدب لا ترتبط بالسبق الزمني لشاعر على آخر، يقول ابن قتيبة « ولم يقصر الله –جلّ وعلا– العلم والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كلّ دهر، وجعل كلّ قديم حديثا

21 المرجع السابق، ص38.
22 المرجع نفسه، ص219.
23 ينظر: المرجع نفسه، ص38.

في عصره »[24]. ففي قوله أن جودة الشعر ترتبط بقائله، لا بإيغاله في الزمن (القدم) .

وممّا نبّه عليه عبد الملك مرتاض قول ابن قتيبة عن أمثل اللحظات للكتابة، والذي نقله عنه ابن رشيق، حين قال « أوقات يسرع فيها أتيُّه، ويسمح فيها أبيُّه، منها أول الليل قبل تغشّي الكرى، ومنها در النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة في الحبس والمسير، ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ورسائل الكتّاب « 25، فيمكن أن يرقى هذا الكلام –في نظر مرتاض– إلى الكتابة النقدية التنظيرية؛ لأن ابن قتيبة أسس للأوقات المثلى للكتابة الأدبية شعرها ونثرها، وهي أول مرة تحدّث فيها عن الجنسين الأدبيين على قدم المساواة، وهما الشعر والكتابة، ويبقى الموقف الصادم عاملا مهما في قيام الإبداع، يليهما المكان والزمان حين يتضافران فيفعلان فعلتهما في الأديب[26] .

- الرأي الثالث : إلزامية التمييز بين النقد النظري والنقد التطبيقي :

لا ينبغي –من منظور عبد الملك مرتاض– أن يستهان بالإجابة عن سؤال : ما النقد ؟، لأنها إشكالية شديدة التعقيد متناهية الاعتياص، غامضة الماهية، لأنّ النقد يندرج في صلب الاهتمامات الفكرية المستمرة، فمنذ كان الإبداع، كان الرأي حوله، ومنذ كان الإبداع الشعري خصوصا كان النقد له27، ومن زعم أنه سيستطيع الإجابة عنه بصورة نهائية قطعية، فقد ادّعى الكمال للعقل البشري .

يرى عبد الملك مرتاض بأن النقد نقدان : أحدهما تطبيقي والآخر نظري، يقول « فإنّ النقد، فيما نريد تحديده له من إطار في هذا الموطن على الأقل، نقدان اثنان : نقد نظري، ونقد تطبيقيّ، ومن الحقّ أنّ الناس على ما كتبوا من كثرة كثيرة حول النقد، فإنّ التمييز في كتاباتهم هذه بين النظرية والتطبيق قليل، وحين يكون هذا التمييز فغالبا ما يستميز هو نفسه، بالغموض وربما بالعجلة والتسرّع »[28]، فالنقاد –على حدّ قوله– لا يميّزون بين النقدين، وإن ميّزوا فالغموض سبيل ذلك التمييز، والعجلة والتسرع سمته .

---

24 ابن قتيبة، الشعر والشعراء، بيروت، دار الثقافة، 1964، ج1، ص10 .

25 ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، القاهرة، عالم الكتب، ط3، 1963، ج1، ص90 .

26 ينظر: مرتاض عبد الملك، في نظرية النقد، ص48 .

27 ينظر: المرجع نفسه، ص49 .

28 المرجع نفسه، ص50 .

أمّا عن تمييزه للنقدين عن بعضهما بعضا، فهو كالآتي[29]:

– النقد النظري ضروري لازدهار الحقل المعرفي حول هذا الموضوع من حيث هو ذو طبيعة تأسيسية وتأصيلية معا، فلولا التأسيس لما كان التطبيق.

– يبحث النقد النظري في أصول النظريات، وفي جذور المعرفيات، وفي الخلفيات الفلسفية لكلّ نظرية، وكيف نشأت وتطورت حتى خبت جذوتها، ثمّ كيف ازدهرت وأفلت حتى هان شأنها، ويقارن فيما بينها ويناقش تياراتها المختلفة، عبر العصور المتباعدة المتلاحقة معا أو عبر عصر واحد من العصور.

– يكون النقد التطبيقي ثمرة من ثمرات النقد النظري الذي يزوده بالأصول والمعايير والإجراءات والأدوات، ويؤسس له الأسس المنهجية التي يمكن أن منها سبيلا يسلكها لدى التأسيس لقضية نقدية، أو لدى دراسة نص أدبي أو تشريحه، أو التعليق عليه، أو تأويله.

– يجتزئ النقد التنظيري بالتأصيل والتعلّق بالبحث في المجردات، وهو بهذا السلوك يضارع الفلسفة إلى حدّ ما، فإنّ النقد التطبيقي هو الذي يتكفل بترجمة تلك النظريات، ويفرزها، ويصنفها، ويقدّها على قدّ النص، فهو ببعض ذلك يشبه شأن العلوم التطبيقية بالقياس إلى العلوم التأسيسية، فبفضله نلمس ثمرة الجهد النقدي في إجراء التنظير، أي بفضله نستطيع ترجمة المجرّد إلى المحسوس، والغامض إلى الواضح.

– النقد التطبيقي ضرب من ضروب القراءة الاحترافية.

- الرأي الرابع: الدعوة إلى الوسطية بين النقد القديم (التقليدي) والنقد الجديد:

ظهرت في القرن العشرين خصومة بين النقاد العرب حول مسألة القديم والجديد، فدافع طه حسين عن الكتابة الحداثية، ودافع مصطفى صادق الرافعي، عن كلّ ما هو تقليدي، ولم يقتصر هذا الصراع على النقد العربي، بل امتدّ إلى جميع الآداب العالمية، ولكن عبد الملك مرتاض لم يرض بذلك ووقف موقفا وسطا بين النقدين، وعاتب أنصار كلّ اتجاه على مبالغتهم في التشدّد بموقفهم، يقول « ونعتقد أنّ كلّا منهما يبالغ في موقفه، ويتطرف في منهجه، ذلك بأنه لا الاشتغال بحياة المؤلف وأسرته وزمانه ومكانه وعرقه وكلّ شؤونه تنصرف إلى إنسانيته أو رجوليته ممّا يساعد على الفهم الصحيح لعمله الأدبي، ولا إهمال المؤلف جملة وتفصيلا، وتحت الإصرار المبيّت، ممّا يظاهر القارئ، أو المحلل، على فهم العمل الأدبي أيضا، وربما كان الموقف الوسط هو

29 ينظر: المرجع نفسه، ص51.

الأسلم في تدبير هذه المسألة وتقريرها »[30]. ففي قوله دعوة صريحة إلى الأخذ بطرف من كلّ نقد؛ للأسباب الآتية:

– ليس من الضروري دائما أن يتوقف فهم عمل مبدع ما على معرفة تفاصيل حياته، بل يمكن تأويل النصوص وتحليلها في غياب لحظة أو موقف من مواقف حياته، ولكن ما يعتقده أصحاب المدرسة التقليدية أن فهم الإبداع لا يتم إلا بفهم ما له صلة بحياة المبدع كلّها.

– يعدل النقد الجديد في كثير من الأحيان عن الجانب التاريخي ويمتطي الإبستيمولوجي، ولكن هناك كتابات نقدية لا يمكن أن نستغني فيها عن المعرفة التاريخية بكل الملابسات التي تحيط به، فهناك الأدب وتاريخ الأدب، والنقد وتاريخ النقد، كما عبّر عبد الملك مرتاض.

- الرأي الخامس: تجريد النقد من الخلفيات الفلسفيّة أو أصالة النقد:

قد يكون الكاتب فيلسوفا في بعض الأحيان، ولكن لا يمكن للفيلسوف أن يكون كاتبا، ذلك لأنّ أي كاتب قد يشقّ عليه في بعض الحالات الابتعاد عن التفلسف، وقد رأى عبد الملك مرتاض أن جلّ المذاهب النقدية تتكئ على خلفيات فلسفية، يقول « إنّ معظم المذاهب النقدية تنهض في أصلها على خلفيات فلسفية، على حين أنا لا نكاد نظفر بمذهب نقدي واحد يقوم على أصل نفسه، وينطلق من صميم ذاته الأدبية، وما ذلك إلا لأنّ الأدب ليس معرفة علمية مؤسسة تنهض على المنطلق الصارم، والبرهنة العلمية ولكنه معرفة أدبيّة جمالية أساسها الخيال والإنشاء، قبل أي شيء آخر »[31]. والنقد رديف الأدب فكان لزاما عليه أن يحمل خصوصياته، أي إنّ النقد من منظور عبد الملك مرتاض يجب أن يقوم على أصل ذاته.

ويؤكد مرتاض في موضع آخر على أنّ الفلسفة قد أفسدت النقد، حين عارض ما قام به الفرنسي جاك دريدا الذي أخضع النقد إلى أصول فلسفية، يقول « وإن كان لنا من موقف نقفه، ... أنّ دريدا لعلّه أن يكون قد أفسد النقد الأدبي بإصراره على تأسيسه على أصول معرفية فلسفية خالصة، وهنا قد يكمن ضعف نظرية التقويض في رأينا والنظريات النقدية في عامتها »[32].

30 المرجع السابق، ص63.
31 المرجع نفسه، ص79.
32 المرجع السابق، ص100.

– الاطلاع على النظريات النقدية الحديثة وإفرازاتها وعدم الاكتفاء بنقدها نقدا غير مؤسس، قد يفضي في غالب الأحيان إلى مغالطات كثيرة.

دعا عبد الملك مرتاض إلى ضرورة التريث حين الإقدام على نقد النظريات النقدية الحديثة، لأنّ فيها من الحقائق والمعرفة ما لا يردّ، ونضرب لموقفه هذا من النظريات النقدية، ردّه على ما كتب عبد العزيز حمودة من نقد للنظرية التقويضية لجاك دريدا[33]، حيث رأى بأنّ هذا الأخير قد انطلق في نقده من عدائية للحداثة والعدوانية عليها، ولكن من موقع ضعيف معللا ذلك بما يلي[34]:

– عرف عبد العزيز حمودة بالترجمة، ولم تكن له أعمال نقدية رائدة، أو كتابات في نظرية النقد، وكان عليه أن يتحلّى بالاحترافية في مثل هذه الأحوال، فليس من العدل أن نرفض للناس ما يكتبون إن كانوا حقّا مقتدرين على الكتابة. يضاف إلى ذلك بأنّ الترجمة غير النقد وبينهما اختلاف بيّن.

– من المعروف أنّ نظرية التقويض بارسية المنشأ (فرنسية)، فرنسية اللغة والفكر، وعلى ناقدها أن يكون فقيها في الفرنسية ملمّا بثقافتها، حتى يتمكّن له نقدها.

– أنّ عبد العزيز حمودة انطلق من موقف فكري مسبق ومشحون بالإصرار؛ لمهاجمة الحداثة وتسفيه أحلامها وتجريمها ما لم تجترم.

– كان على عبد العزيز حمودة التحلي بالحياد العلمي، ونقد هذه النظرية من خلفية معرفية تعتزم الموضوعية، وتبذل الجهد لبيان مواطن الخلل فيها، لا الدعوة إلى التخلف المعرفي، والتشيّع إلى رفض الفكر الجديد، وإلى حمل الناس على معاداة التطور.

وقد ختم عبد الملك مرتاض ردّه على الأستاذ عبد العزيز بمقولة تبيّن موقفه من النظريات النقدية، وطرحه لفكرة تأسيس نظرية جديدة، يقول «إنّ المسألة التي نودّ توكيدها للناس، ... أن الفكر الذي يجدد نفسه، ويثور على السائد، فينتج ويرفض هو الفكر الكبير، وهو الفكر الذي ينتج المعرفة المستقبلية، وهو الفكر الذي يجب أن نعضّ عليه بالنواجذ»[35]، تلك رؤية تأسيسية لفكر نقدي عربيّ بنّاء، ينطلق من فكر يعتز بماضيه ولا يرفض مستقبله، ويحاكي غيره لإنتاج معرفة أصيلة.

---

33 ينظر: حمودة عبد العزيز، المرايا المحدبة، من البنوية إلى التفكيك، الكويت، عالم المعرفة، 1998، ص 291-404.

34 ينظر: مرتاض عبد الملك، في نظرية النقد، ص 95.

35 المرجع نفسه، ص 101.

خاتمة:

بعد استقرائنا لجملة من الآراء النقدية، التي استنبطها الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض من خلال فحصه للتراث النقدي العربي، واطّلاعه على ما كتب في النقد الغربي ومدارسه، خلصنا إلى النتائج الآتية:

– يعدّ عبد الملك مرتاض من النقاد الجزائريين القلائل، الذين فقهوا التراث النقدي العربي، واستطاعوا فهم المدارس النقدية الحديثة، بفضل ثقافته الواسعة، وإتقانه لعدة لغات أجنبية؛ لذلك قدّم قراءة جديدة للنقد العربي، واستنبط آراء نقدية رصينة.

– تضمّن التراث النقدي العربي آراء نقدية، سبقت تلك الآراء الغربية، يمكن أن تكون معينا لإرهاصات نظرية نقدية عربية.

– إن كثرة النقاد العرب لا يعني وجود نظرية عربية نقدية، ولكن لا ينفي إسهاماتهم في النقد العربي، فإذا ما توحّدت الرؤى، وتضافرت جهود هؤلاء النقاد، فلا محالة من وجود بدايات تأسيسية للنظرية النقدية المرجوة.

– إنّ الإبداع ليس حكرا على عقل بشري بعينه، لذا يمكن أن يبدع النقاد العرب إذا تضافرت جهودهم في إرساء نظرية نقدية عربية، خالصة لا تشوبها شائبة المناهج النقدية الغربية.

– إذا جدّد الفكر العربي نفسه، وثار على السائد، فسوف ينتج، ويرفض؛ ممّا يؤدي في نهاية المطاف إلى محاولة جادّة للتأسيس لنظرية نقدية عربيّة أصيلة بنّاءة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، القاهرة، عالم الكتب، ط3، ج1، 1963.
2. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، بيروت، دار الثقافة، 1964.
3. الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ت: سيد الجميلي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، 1998.
4. أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد، بيروت، منشورات عويدات، ط2، ج3 2001.
5. حمودة عبد العزيز، المرايا المحدبة، من البنوية إلى التفكيك، الكويت، عالم المعرفة، 1998.
6. الدايم محمد عبد العزيز، النظرية اللغوية في التراث العربي، القاهرة، دار السلام، ط1، 2006.

7. دويدري رجاء وحيد، المصطلح العلمي في اللغة العربيّة، دمشق، دار الفكر، ط1، 2010.
8. صلاح قنصوة، فلسفة العلم، القاهرة، دار قباء، 1998.
9. عبد الله محمد فتحي، معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم، مصر، دار الوفاء، ط1، 2003.
10. مرتاض عبد الملك، نظرية النص الأدبي، الجزائر، دار هومة، ط2، 2010.
11. مرتاض عبد الملك، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، الجزائر، دار الكتاب العربي، 2001.
12. مرتاض عبد الملك، في نظرية النقد (رصد لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، الجزائر، دار هومة، 2002.